

قصة قصيرة

جسد غريب في الحوش

محمد علي طه

كان الظلام ما زال يلغح الحظيرة والمنزل والعنزة والغنمة والدجاجات والدّيك ويكاد يمحو ملامح الأشياء. الجسم ممدّد على التراب. تعودلت وبسملت الحاجة زينب. ماذا يمكن أن يكون؟ همّ الحاج بأن يمدّ يده إلى الجسد ولكنّه توقف وقال: وهل تحسبين أنّ الجهاز بحجم الطنّجرة أو الكأس. الجهاز اليوم يوضع في فصّ الخاتم أو في زرّ البنطلون او في ياقة القميص.

نهضت الحاجة زينب من فراشها حينما سمعت صوت المؤذّن ينطلق من مكبّر الصّوت "الصّلاة خير من النّوم" يردّها مرّتين. وقالت بصوت مسموع: أصبحنا وأصبح الملك لله. توفّأت وصلّت ركعتي السنّة فركعتي الفرض وردّدت دعاءها الذي لازمها منذ سنوات "اللهم لا تدع أسيراً الا فككت أسرّه!" ثم طوت سجّادة الصّلاة ووضعتها في الخزانة ونادت: حاج صبحي. وحّد الله، الصّلاة الصّلاة يا حاج صبحي.

وفتحت الباب وخرجت الى حوش المنزل.

كان نسيم الصّباح ناعماً لطيفاً فيه لمسة برودة. وكان عطر أزهار شجرة الليمون يتضوّع في فضاء الحوش.

شمّت الحيوانات والطّيور رائحة ربّة البيت، وسمعت وقع خطواتها فتحركت ونشطت. ثغت الغنمة البيضاء والعنزة البنيّة. ورفرفت الدجاجات بأجنحتها وصاح الدّيك ذو العرف الأحمر الذي يزيّن رأسه ويمنحه مهابة على إنائه.

كانت الحيوانات والطيور ترخب بالحاجة زينب التي ستقدم لها الطعام والشراب. سوف تحمل القش بيديها وتضعه في مذود الغنمة والعنزة. وسوف تحمل الحبوب براحتها وتبذرهما أمام قنّ الدجاجات وتقف لحظات تراقب الديك المعجب بنفسه يوزع الحبوب ويلقي الأوامر على الدجاجات المطيعات له والمولّهات حباً به. وفيما كانت الحاجة زينب تحمل رزمة القش براحتها وساعديها وصدرها وتسير نحو المذود لاحظت أمراً غريباً في الحظيرة. رأت جسماً ممدداً فيها، هناك قرب قنّ الدجاجات.

كان الظلام ما زال يلغ الحظيرة والمنزل والعنزة والغنمة والدجاجات والديك ويكاد يحو ملامح الأشياء. الجسم ممدد على التراب. تعوذت وبسملت الحاجة زينب. ماذا يمكن أن يكون؟ كانت الثعالب وبنات آوى تغزو القنّ في السنوات السابقة فلما استوطن الغرباء على الهضاب والسفوح وبنوا بيوتهم الغربية وسَمّموا الحقول وصاروا يطلقون الرصاص كلما سمعوا حركة أو صوتاً اختفت الثعالب وبنات آوى كأنها قالت لا مربوط لجوادين على مذود واحد. والجسم لا يشبه الثعلب ولا ابن آوى. الجسم طويل. طوله يزيد عن المتر ونصف المتر ويكاد يصل إلى المترين. وأين للثعالب وبنات آوى مثل هذا الطول؟ والجسم ليس جسم ذئب أو جسم ضبع. لو كان ثعلباً أو ابن آوى أو ضبعاً أو ذئباً ما اقتربت العنزة أو الغنمة منه ولما قفزت الدجاجات حوله.

مرّت الحاجة زينب في تجارب شديدة في حياتها على الرّغم من أنّ عمرها لا يتجاوز السادسة والسّتين عاماً إلا أنّها تبدو عجوزاً طاعنة في السنّ. شعر رأسها أبيض مثل الطّحين وأخايد عديدة في وجهها الحنطيّ وشامات بيّنة كبيرة وصغيرة تغطّي ظاهر كفّيها وساعديها، وزغب شائب فوق شفتها العليا كأنّ لها شاربين. لا تهتمّ بجمالها ولا بزينتها. أين هي اليوم من أيّام الشّباب حينما كانت نؤارة الحارة وزينتها، تفور جمالاً وأنوثة وصبا مما أوقع صبحي في حبّها وقاده إلى خطبتها. شاهدت زينب وهي في شهر العسل الدّبابات والعسكر يجتاحون المدينة ويطلقون الرصاص العشوائيّ. كانوا خائفين على الرّغم من قوتهم وانتصارهم. وشاهدت بعد سنوات الشّبان يرحمون الجنود بالحجارة مثلما شاهدت قنابل الغاز في السّاحات والأرقة وسمعت لعلعة الرصاص. وما زالت تذكر أنّ بعض الشّبان أو الفتیان اختبأوا في حوشها عدّة مرات هرباً من الجنود، وقد منعت في إحدى المرّات جنديين من دخول الحوش حينما تصدّت لهما بجسدها. استحوا على دمكم. انتو بلا اهل. بلا بيوت. وشاهدت عمران الصّالح، الفتى الأسمر الطويل الذي سقط في الشّارع يتفعل قرب بيتها بعد أن أصابته رصاصة وكيف هجم الجنود حتى وصلوا الى جسده الملقى على قارعة الطّريق فأفرغ جنديّ خمس رصاصات في جسده ليتأكّد من وفاته. وحضرت قبل سبع سنوات محاكمة ابنها البكر عمر الذي حكم عليه القاضي العسكريّ بالسّجن المؤبّد ثلاث مرّات مع أنّه لم يعترف بإلقاء

زجاجتين حارقتين على سيارّة يستقلها ثلاثة مستوطنين مما أدّى الى انحرافها عن مسارها وانقلابها وتدحرجها إلى أرض منخفضة وممّا أدّى إلى مقتل احدهم فوراً وجرح الآخرين جراحاً خطيرة. ابتعد السّرور من بيتها ومن قلبها منذ سُجِنَ عمر. وكبرت في هذه السّنوات أكثر من عشرين عامّاً. غزاها الهمّ واستوطن في حياتها مثل المستوطنين على أرض القرية المجاورة.

اقتربت الحاجة زينب من الجسد الغريب برباطة جأش وهي تقول: أنا أمك يا عمر! ولكنّها بسملت أكثر من مرّة. وضعت القشّ في مذود الغنمة والعنزة فيما كانت تنظر الى الجسم الغريب.

كان نور الفجر قد بدأ يكشف عن وجه الحوش وكانت الحاجة زينب قد تعرّفت على الجسم. الجسد جسد إنسان. إنسان كامل. قدمان وساقان وبطن وصدر وذراعان وراحتان وعنق ورأس. يا سبحان الله. مستلق على أرض الحوش كأنه يرتاح على سرير وثير. مستلق على مقربة من روث الغنمة والعنزة ولعلّ بعض البعر تحت جسده. لا يابه بزبل الدجاج ذي الرّائحة الكريهة.

اقتربت من الجسد. الوجه يميل إلى الشّقرة. يغطيه شعر أشقر، ليس أشقر تماماً، لم يخلق منذ أيام. شعر الرأس حليق ما عدا خطأً من الشّعر يمتد من الجبين إلى القفا.. إلى العنق. هذه قصّة شعر غير عاديّة. يرتدي ملابس كاكّيّة. هي ليست ملابس الجنود ولا ملابس الوحدة الخاصّة. ملابس تذكّر بفرق الكشّاف التي تقيم استعراضاتها في أيّام الأعياد. وينتعل حذاء رياضياً من شركة نايك.

وتقدّمت الحاجة من الجسد أكثر. وكان الصّبح قد أبلج. والجسد صار أوضح.

من أين دخل إلى الحوش فالبوابة مقفلة وحديدها قويّ وما زالت كما هي مقفلة بإحكام. والسور عالٍ، وفوق المائة والسبعين سنتيمترًا على الاسمنت المسلّح هناك زجاج حادّ يجرح الايدي والأقدام وكل من تسوّل له نفسه أن يدخل إلى الحوش. لنفرض انه وضع سلّمًا في الخارج وتسلق عليه فإنه لا يستطيع أن يقف على الجدار لأنّ الزّجاج حادّ... وكيف يهبط إلى الحوش!

لم يدخل إلى الحوش بطريقة عاديّة. لعلّه طار في الفضاء. وربّما هذا جسد لكائن فضائيّ وصل إلى الحوش وقرّر أن يستريح هنا. ما الذي اعجبه بالمكان؟ هناك في المدينة بيوت ذات حدائق وجنائن وأزهار ونجيل أخضر هي أفضل من حوش في مخيمّ لاجئين، أفضل من حوش الحاج أبو عمر. لله في خلقه شؤون. هل هو حيّ؟

وتقدّمت خطوات وحدّقت في الوجه، عيناه مفتوحتان تنظران إلى السّماء وأحياناً إلى الحاجة زينب. هو حيّ. يرى. ولا بدّ أنّه يسمع ويتكلّم. وقالت بصوت مرعوب كأنّها تسترضيه: شو هالنومة يّمّا؟ ولم يرمش ولم يردّ على سؤالها. ولم يتحرّك. "هاي نومة شباب! حتى الرّعيان ما عادوا يناموا هيك!".

ولم ينبس بنت شفة. الرّجل ليس ميّتًا. حيّ. عيناه مفتوحتان وتحذقان بالسّماء أحيانًا وبالْحاجة أم عمر أحيانًا أخرى. ونظرت الحاجة إلى راحتيه. أصابعه دقيقة وطويلة والأظفار مقلّمة والأصابع تخلو من المعادن. لا خاتم ولا محبس. لا ذهب ولا فضّة "يا حبيب أمك. هربت من العساكر؟ من اولاد الحرام؟ يكرهون الرّجال. يكرهون الشّباب والفتيان. يكرهوننا. ونحن نكرههم. اجا الوقت يرحلوا من ارضنا. من هوائنا. لا احد يريدهم. الاحتلال جحيم. وهم اولاد الجحيم. انصرفوا. انقلعوا يا اولاد القحبة. سوف يعود عمر إلى دارنا حرًّا طليقًا. يعود ويرقص ويدبك في الأعراس. عمر يتقن الدبكة الشّماليّة ويغني: يا ظريف الطّول. عمر شجاع قبضاي مثل والده. هل أنت صديقه يمه؟ من خليّته؟ هل تحمل رسالة منه؟ احك يا يمه. احك. قل شيئًا. انطق!

فتح الحاج صبحي الباب ودخل إلى الحوش وهو يقول: يا فتّاح يا عليم. يا مقسّم الارزاق يا كريم. فرفعت الحاجة زينب يدها مشيرة إليه أن يأتي إليها.

- قولي، شو السّيرة؟ العنزة مسهولة؟ ناقص صوص في القن؟

سألها الحاج صبحي ومشى نحوها.

رفعت أم عمر راحتها ووضعت سيّبتها على شفّتها لتقول له: اصمّث. ولولا أنّه يعرف أنّ رفيقة عمره تحترمه وتقدره وتقول له دائماً "العين ما بترتفع على الحاجب" لغضب من الحركة فكيف تجرؤ زوجة في المخيم أن تأمر زوجها بالصمت؟ لا بدّ أنّ هناك أمرًا غريبًا. خطيرًا.

التزم الحاج صبحي الصّمت وسار نحوها.

- رجل مستقل على التراب. قالت الحاجة زينب بصوت لا يكاد يُسمع.

حدّق أبو عمر بالجسد ومرّت لحظات ولم ينبس بنت شفة ثم قال: هذا شابّ في الثّلاثينات.

- اظنّ في العشرينات.

- عوده قويّ ومن المؤكّد أنّه تجاوز الثّلاثين.

- عيناه تتحركان وينظر إلينا. يراقبنا.

- انت واهمة يا زينب.. أنت خائفة. لا شيء فيه يتحرّك.

- انا قلقانة.

- شعر رأسه طويل. لا يعرف الحلاق.

- يا ربّ. هناك اشياء تتبدّل بسرعة. قبل لحظات كان رأسه حليقًا وقد ترك الحلاق خطأً من الشّعر

- من جبينه إلى قفاه، مثل المصارع الوحش الذي رأيناه في التلفزيون.
- صرت تهذين. بعد قليل سوف تتحدّثين عن الجنّ، عن الشياطين الذين وجدتهم يلعبون مع العنزة ويقفزون حولها.
- منذ تزوّجنا وانت تعارضني وتخالفني وتسخّف كلامي.
- يا حاجة بالله عليك اعقلي. كيف تغيّر شعر رأسه بهذه السرعة؟
- سكنت الحاجة زينب وقزرت ألاً نخوض نقاشاً مع زوجها لأنّه لن يصدّق كلامها، وكلمة الرجل هي الكلمة العليا في هذا المجتمع حتى لو كان الرجل أبله. ولكنّها لا تستطيع أن تصمت طويلاً. الرجل ممدّد في الحوش. من هو؟ من أين جاء يا صبحي وماذا يريد؟
- أظنّ أنّه من رجال المقاومة. طارده الجنود فتسلّق على الجدار وقفز إلى الحوش ومن شدّة القفزة أغمي عليه ولا يتحرّك.
- لا يا حاجّ. رجال المقاومة لا يفعلون ذلك. كانوا يدخلون الى الحوش والى بيتنا ويختبئون من العسكر. وكنت أفدّم لهم الطّعام والشّراب. جمال الطّويل بقي عندنا تسعة أيام لأنّ أولاد الحرام كانوا مرابطين في الشّارع. اشتريت له يا حاج ملابس داخلية وبنطلوناً وأعطيته قميصاً من قمصان عمر.
- لا والله. من قمصاني يا حاجة.
- لعن الله هذا العقل الذي بدأ ينسى. صحيح انا عارضت أن نعطيه قميصاً من ملابس عمر.
- الباب كان مغلقاً. فكيف دخل؟
- هل طرق على الباب دقتين ثمّ ثلاث دقّات.. افتحي يا خالتي؟
- ويبدو ان الحاجّ صبحي اقتنع بوجهة نظر زوجته فالرجل ليس من رجال المقاومة ولو كان منهم لكان يحمل شيئاً ما.
- ومرّت فترة صمت. دار الحاجّ حول الجسد وتأمله. كان يتفحصه بعينيه. الرّجل حيّ يا زينب. صدره يعلو ويهبط.
- ربّما هو أسير هارب من المعتقل.
- لا يمكن. الأسير الذي يهرب يختبئ في مكان آمن وبعيد، في كهف في الجبل. لا يمكن أن يختبئ في المخيم أو في المدينة. لأنّ العملاء سوف يتعرّفون إليه ويشون به.

- اللهم امحق العملاء ولا تبق منهم على وجه الارض ديارًا.
- اسمعي يا زينب. نحن أمام أمر خطير. نحن عائلة مراقبة. عمر في السجن. مؤبد. عيون الاحتلال علينا. يجب ألا يعلم أحد بوجود هذا المخلوق هنا.
- هذا جسد.
- لا يهيم.
- لعله مستوطن قبض الشباب عليه ورموه هنا.
- لا يمكن. أولاً لا يجرؤ مستوطن على دخول المخيم. وثانياً لو قبض الشبان عليه لأخفوه ليبادلوا به، وثالثاً لا يرتدي قبة دينية على رأسه ولا سواف طويلة تتدلى على جانبي رأسه.
- هناك مستوطنون بدون سواف وبدون قبعات.
- لو وضعت الأسد في ظهر الواحد منهم لن يدخل المخيم. للمخيم هيبه يا حاجة. والآن.. قبل أن تشرق الشمس ويتحرك الناس خارجين من بيوتهم وقبل أن يأتي أبو محسن ليشرب القهوة معنا علينا أن نخفي الجسد.
- وبان الخوف في عيني الحاجة. هل يعقل أن تعيش أياماً مع جسد لا تعرفه؟ رجل غريب في البيت. رها ليس من ملتنا يا حاج؟ ما رأيك لو تقترب من أذنه وتحاول أن تكلمه؟
- والله رأيك صحيح.
- واقترب من الجسد وجلس القرفصاء وبسمل وقال بصوت هادئ: من أنت؟ ما اسمك؟ من اين جئت؟ قل. احك. انطق. لا تخف. انت في امان. قل لي من انت؟
- ولم يتحرك الجسد. لم تتحرك أصابعه او شفتاه.
- يا حاج.
- قولي.
- أنت اشتغلت عند اليهود عدة سنوات وتعرف لغتهم وترطن بها. اسأله بالعبراني لعله خواجا.
- يهودي يدخل المخيم!؟
- كل شئ جائز.
- واحنى الحاج أبو عمر رأسه على الجسد وقال: ما شلومخا؟ مين أتا يا زلي؟ ميئيفو أتا باتا لهونا؟

ابتسمت الحاجة أم عمر وهي تسمع زوجها يرطن بالعبري فهي تعتقد انه "لبلب عبراني" فقد عمل قبل الانتفاضة سبع سنوات في مزرعة الخواجا عزرا قرب ملبس.

ولم يتجاوب الجسد مع أسئلة الحاج العبرية.

- هذا ليس يهودياً.

قرّر الحاج صبحي.

- لا يعرف العبراني.

- ولا يعرف العربي. لو كان عمر هنا لكلمه بالانجليزي. يمكن انه أميركاني. مستوطن أميركاني. الأميركي كان يهود.

- زينب.

- نعم.

- هذا محتال مستعرب. ادخلوه الى الحوش ومعه جهاز لينقل الاخبار للمخابرات.

- فتّشه يا أبو عمر!.

همّ الحاج بأن يمدّ يده إلى الجسد ولكنّه توقف وقال: وهل تحسبين أنّ الجهاز بحجم الطنّجرة أو الكأس. الجهاز اليوم يوضع في فصّ الخاتم أو في زرّ البنطلون او في ياقة القميص.

- هذه علقه. علقه سوداء. اذا عاملناه معاملة حسنة نشجّعه على التّجسس علينا وعلى سگان المخيّم وإذا قتلناه فسيخرّب الجيش بيتنا.

- لن نسمح له بالتّجسس ولن نوّذيه.

- كيف؟

- ننقله الى المخزن ونقفل عليه. لا يرى أحداً ولا يراه أحد.

- نحمله انا وانت؟

- واذا مات فسوف نتهم بقتله.

- علينا أن نتخلّص منه. اسمعي يا زينب. ننقله الآن إلى المخزن وفي الليلة القادمة نحمله ونرميه بعيداً في الشّارع العامّ.

- فكرة جيّدة.

- نرتاح من هذه المصيبة.

- نرتاح؟

- طبعًا.

- سوف نبقي نقول لو فعلنا كذا. لو سلّمناه للشّربة، لو خبّأناه حتى يصحو.. لو..

- اذا سلّمناه للشّربة فلن نسلم واذا بقي عندنا فلن نسلم.

- واذا اكتشفوا أنّه كان عندنا ورميناه في الشّارع فلن نسلم أيضًا.

- اسمعي. ما رأيك ان أدفنه في الحوش.

- وندع روحه في رقبتك؟

نظر الحاج صبحي إلى السّماء لعلّها تسعفه ثم نظر إلى وجه زينب الذي يغشاه القلق والحيرة، وحكّ جبينه بسبّابته وإبهامه وقرأ آية الكرسيّ فيما كانت الحاجة زينب تراقبه معجبة بما يقرأه وتتوقّع منه أن يجد حلًّا للأزمة فالرّجال يعرفون في وقت الشّدائد. وهي تعرفه منذ زواجهما رجلًا قويًّا عصاميًّا شهما لا يعرف الخوف ويتغلّب على المصاعب والشّدائد وقد تحمّل الضرب والاهانات والجوع في مراكز الاعتقال عدّة مرّات وبخاصّة عند اعتقال عمر.

- اسمعي يا زينب. هذا ليس مستعربًا وليس أسيرًا هاربًا وليس مقاومًا وليس مستوطنًا، وليس منّا. هذا جسد مخلوق غريب. انظري إلى أذنيه. تختلفان عن اذني الانسان وانظري الى عينيه. تختلفان عن عيوننا. وانظري إلى أصابع يديه. انظري الى انفه. انفه عريض. عريض وفمه صغير جدًّا. هذا مخلوق غريب. جاء من بعيد. مخلوق فضائيّ. قرأت قبل سنوات أنّ مخلوقات فضائيّة تزور الكرة الأرضية.. تأتي على صحن طائرة وتأخذ عينات منها وتحمل معلومات وتعود الى كواكبها.

- اين قرأت هذا؟

- في صحيفة القدس.

- كلام جرائد.

- لا يمكن أن تكذب هذه الصّحيفة احترامًا لاسمها.

- واين الصحن الطّائر؟

- ربما أصابه عطب مثلما يصيب الطّائرة في الجوّ ولعلّه قفز مثل المظليّ.

- يعني خرب الصّحن الطّائر.

- وسقط المخلوق في حوشنا، ومن شدة السقوط لا يتحرك.

- ولا يردّ على أسئلتك.

- هل يعرف أهل الفضاء لغة البشر؟.

- أن يكون رجل فضاء اهون واسهل لنا. لا يعاقبنا القريب ولا الغريب. ولن نعلق مع الاحتلال. هذا الاحتلال سقط علينا في حزيران ٦٧ مثل رجل الفضاء. نزل ولا ينوي الرحيل.

- اسمعي يا زينب. سوف احضر بطانيّة ونضعها بجانب الجسد ونحرّكه حتى يصبح فوقها، ونجرّ أنا وانت البطانيّة، نسحبها، ندخله الى البيت، ونضعه في الغرفة الصّغيرة، ونترك الشّبّاك مفتوحًا اذا صحا يطير ويهرب.

- يعني انت متأكّد من أنّه رجل فضاء.

- وماذا يمكن ان يكون؟

- شيطان. جنّي. عفريت.

- لو كان شيطانا او عفريتًا او جنّيًا لهرب حينما قرأت آية الكرسي والمعوذتين.

- وانا قرأت الصّمدية.

وتذكّر الحاج صبحي أنّ النّاس في صغره تحدّثوا عن الجنّي، الذي كان يسكن في دُغل الصّبار وكان يحبّ امرأه متزوّجة من المخيمّ ويأتيها ليلا فيغشاها. وتذكّر الحكايا عن المارد الذي كان يقف في طريق النّاس بين المخيمّ وبين العين في ساعات السّحر. قد تكون الحاجّة زينب صادقة. ونحن وان كنا نعيش في القرن الحادي والعشرين، قرن العلم والاختراعات الا ان العالم مملوء بالجنّ والشّياطين وبالعفاريت. شياطين الإنس والجنّ. هناك جنّ كفرّة وهناك جنّ مسلمون موحدون. هناك رجال مقاومة يربعون الاحتلال فيراهم جنّا وهناك جنود فقدوا عقولهم ودخلوا المستشفيات للعلاج من هول ما شاهدوه.

- يا حاجّة زينب. الشّيطان هو الاحتلال.

- لعنة الله على الشّيطان.

- ابقني هنا بجواره. راقبي قدميه وراحتيه وفمه وانفه وعينييه حتى اعود مع البطانيّة.

- ما رأيك ان ارشّ على وجهه ماء لعلّه يصحو.

- بعدما ننقله.. فاذا صحا اطعمناه واسقيناه وفاوضناه.. ليرحل. ليرحنا. سأعود بسرعة. لا تقلقي!

وتركها واقفة قرب قدمي المخلوق الغريب ودخل إلى البيت وبدأ يتفحص الحرامات والبطانيات..
هذه في منتصف العمر وقد تخوننا. هذه أقوى وأمتن.. واخيراً سحب حراماً صوفياً يكاد يكون
جديداً وحمله بيديه وخرج من المنزل.

وزينب؟

أين الحاجة زينب؟

لا يراها.

هل تركت المخلوق الغريب وهربت؟

لعلها ذهبت تقضي حاجتها.

لعلها خافت فابتعدت.

وأتسعت خطواته. وشاهد جسد الحاجة زينب ممدداً على الأرض وشعرها الشائب مكشوف..
ونقطة حمراء قرب فمها.. ولا شيء.. لا شيء غيرها. لا انس ولا جن!!.

وكانت الغنمة تتغو والعنزة تنادي ماع ماع. والدجاجات تقرق.. اين هو؟ هل بلعته الارض؟ أم
طار في السماء؟ اين راح؟ اين اختفى؟ زينب. يا حاجة زينب. يا أم عمر. بسم الله. انا الحاج صبحي..
انا ابو عمر. انا زوجك..

والديك يصيح ويصيح.